ادخل
إلى
العمق

«امكث معنا» (لو ٢٤: ٢٩)

امكث معي

«... يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ»

(لو ١٩: ٥)

❋✚❋

تمهيد:

عندما خلق الربُّ الإله آدم، أراد أن يُقيمَه عنده في الفردوس **ليَمكُثَ** معه ويحيا إلى الأبد، ولكن الإنسان بعصيانه لوصية الله – بغواية الحيَّة – سقط من مجده، وفقد معيَّة الحياة مع الله والتواجد في حضرته. ومنذ ذلك الحين هام الإنسان على وجهه يبحث عن وسيلة لإعادة لُحمة التواصل مع الله، واسترداد ما كان له من بهاءٍ ومجدٍ وكرامة، بل وسلامة لحياته التي غَشتها الظلمة بانفصاله عن الله مصدر النور ومنبع الحياة، ولكن دون جدوى لأن أعماله لم تُرضِ الله، والظلمة كانت قد طغت على ضميره وحياته بسبب بعده عن الله.

وظلَّ الأمر هكذا، برغم ومَضَات النور التي أرسلها الرب على فم أنبيائه، لعلها تُرشده إلى طريق الحياة، فيعود إلى بيته الأول السمائي، ليحيا مع الله إلى الأبد. واحتاج الأمر لتدبير إلهي وتَدخُّل من الله لإتمام تدبير الخلاص للإنسان، بتجسُّد الابن الكلمة وفدائه للإنسان، ليُعيده مرة أخرى بقيامته المجيدة، ويقوده لطريق الفردوس والحياة مرَّة ثانية. ففتح الرب وكرَّس للإنسان – بدم ابنه – طريقًا للنجاة والخلاص، وبَقِيَ على الإنسان أن يستجيب لدعوة الخلاص، وذلك بطلب الرب وقبوله ليَملك على حياته وقلبه وكلِّ كيانه، **وليمكث** معه على الدوام صانعًا له خلاصًا أبديًّا، ومُجدِّدًا لمواعيد الفرح وعشرة الحياة المقدسة مع الله، التي كانت له قبل السقوط، بل ومانحًا أعظم منها.

اشتياق الله وسعيه للسكنى والمكوث مع الإنسان:

يحدِّثنا سليمان الحكيم عن حوار الربِّ مع نفس الإنسان الغالية عنده، وكيف يلاطفها بالمحبة وطول الأناة لتفتح له بابها، فيُشبعُها من غنى محبته ومراحمه، فيقول لها: «اِفْتَحِي لِي يَا أُخْتِي، يَا حَبِيبَتِي، يَا حَمَامَتِي، يَا كَامِلَتِي! لأَنَّ رَأْسِي امْتَلأَ مِنَ الطَّلِّ، وَقُصَصِي مِنْ نُدَى اللَّيْلِ»

(نش ٥: ٢). ولكن هيهات، فالنفس تتمنَّع وتلوذ بأعذارٍ واهية – كما تفعل نفوسنا أيضًا – مستصعبة القيام بهذا الأمر، وتتلكَّأ النفس حتى يعبر الحبيب ويمضي، فتخسر كلَّ شيء.

وهكذا الرب دائمًا يبقى سبَّاقًا إلى الذهاب نحو الإنسان، ودائمًا ما يطرق بنعمته أبواب قلبه، مُترجِّيًا وآملًا أن يفتح له، **ليمكث** معه ويضيء حياته بالفرح. والأمر هنا متوقِّف على استجابة القلب والضمير والأذن المختونة التي تسمع دعوة الروح لها. والرب نفسه يعلن لنا على لسان القديس يوحنا الرائي عن رغبته المُلحَّة في دخول قلب الإنسان **والمكوث** معه وتقديس حياته بقوله: «هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي» (رؤ ٣: ٢٠). فنرى هنا مدى شوق الله وسعيه الدؤوب لإعادة الإنسان إلى سابق عشرته معه، والسُكنى معه إلى الأبد، حتى ينالَ ويشبعَ من نِعَم الله الموهوبة له والمصنوعة من أجله منذ البدء.

كذلك يمكن أن نرى صورة أعظم لهذا الاشتياق الإلهي ورغبة الرب في الدخول إلى قلب الإنسان وحياته، **والمكوث** معه، لكي ينير له حياته ويقدِّسها ويصنع له خلاصًا عظيمًا، وذلك في قصة قبول الرب أن يدخل إلى بيت زكَّا العشَّار، بعدما رأى مدى اشتياقه ولهفته أن يراه، واستعداده القلبي لقبوله، حيث قال له: «...أَسْرِعْ وَانْزِلْ، لأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ» (لو ١٩: ٥)، ثم أتبع ذلك بقوله له: «الْيَوْمَ حَصَلَ خَلاَصٌ لِهذَا الْبَيْتِ» (لو ١٩: ٩). وهذه هي النتيجة الطبيعية لحلول المسيح ودخوله إلى قلوبنا، ألا وهي الخلاص والفرح الذي لا يُنطق به.

ويقول القديس مقاريوس الكبير عن اختيار الرب لنفس الإنسان كمَحَلٍّ لسكناه، ورغبته في إعطاء الإنسان نِعَمَه وبركاته إلى الأبد، فيقول: [فكما أن الله خلق السماء والأرض مسكنًا للإنسان، هكذا أيضًا خلق جسد الإنسان ونفسه بيتًا خاصًا له ليسكن ويستريح في الجسد كما في بيته الخاص، وتكون له النفس المحبوبة عروسًا جميلة مخلوقة على صورته. فإن الرسول يقول: «خَطَبْتُكُمْ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، لأُقَدِّمَ عَذْرَاءَ عَفِيفَةً لِلْمَسِيحِ» (٢كو ١١: ٢)، وأيضًا: «بَيْتُهُ نَحْنُ» (عب ٣: ٦)] (العظة ٤٩: ٤ من العظات الخمسين للقديس أنبا مقار).

أخيرًا، فإن الرب لم يتركنا وحدنا، ولا بَعُدَ عنَّا بعد صعوده بالجسد، فقد أرسل روحه القدوس لنا، مؤمِّنًا لنا حضوره وحلوله الدائم فينا، ومؤكِّدًا وجوده وعمله المستمرَّين معنا، إذ

يقول: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزِّيًا آخر **ليمكث** معكم إلى الأبد...لأنه **ماكث** معكم ويكون فيكم» (يو١٤: ١٦،١٧). وهذه هي أعظم العطايا، وأكبر دليل على محبة الآب الغامرة لنا، ونعمة ابنه الموهوبة للبشرية بسُكنى روح المسيح **ومكوثه** معنا وفينا إلى الأبد.

أهمية رغبة الإنسان واشتياقه وقبوله لسُكنى المسيح فيه:

إن كان الرب هو صاحب المبادرة للسُكنى مع الإنسان والمكوث عنده، وهذا ما أعلنه لنا بتجسُّده الطاهر، واتخاذه شكل البشر والحياة بينهم، وكما ظهر لنا في قصة زَكَّا العشار – كما أسلفنا – حيث قال له: «يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ»، فإنه من اللازم والضروري أن تكون هناك أيضًا إرادة حقيقية واشتياق واستعداد صادق لقبول سُكنى الرب وروحه القدوس فينا، وأن يكون هذا البيت المزمع أن يدخله السيد **ليمكث** فيه مستعدًا لإقامته. وكما يقول بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين: «... وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عب ٣: ٦).

وهنا نتذكر كلمات تلميذَي عمواس اللذين، بعدما تكلَّما مع يسوع، والتهب قلباهما شوقًا نحو الرب؛ فقد ألزماه بالدخول إليهما **ليمكث** معهما: «فَأَلْزَمَاهُ قَائِلَيْنِ: **امْكُثْ مَعَنَا**» (لو ٢٤: ٢٩). حينئذ قَبِلَ يسوع دعوتهما، **ومكث** عندهما، وأشركهما في أول إفخارستيا سرية يصنعها الرب بنفسه بعد قيامته، وفتح بها ذهنهما ليفهما المكتوب عنه، كأول ثمرة من ثمار **مكوثه** عندهم، ومكافأةً على اشتياقهم للوجود في حضرته ودعوتهم له.

كذلك أيضًا صنعت عروس النشيد (مثال النفس البشرية) حينما بحثت عن حبيبها، فلمَّا وجدته **أمسكت به** ولم تُرخِه، بحسب قول الروح على لسان سليمان الحكيم: «فَمَا جَاوَزْتُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، **فَأَمْسَكْتُهُ** وَلَمْ أَرْخِهِ» (نش ٣: ٤). فالربُّ قريبٌ لمن يدعوه، وهو مستعدٌّ أن يدخل **ويمكث** عندنا إن طلبناه وفتحنا له أبواب قلوبنا.

والقديس مقاريوس الكبير يحثُّنا ويشجِّعنا على دعوة روح المسيح وضرورة اقتنائه داخلنا، حتى بسُكنى الرب فينا ومكوثه معنا نمتلئ من كل الكنوز الروحية؛ فيقول: [على مثال البيت الذي يكون سيِّدُه حاضرًا فيه، فإنه يمتلئ من كل اتساقٍ وجمالٍ وبهاء، هكذا أيضًا النفس التي تقتني سيدها معها وحالًّا فيها، تمتلئ من كل جمال، لأنها تحوز على الرب مع كنوزه الروحية ساكنًا وقائدًا لمركبتها] (عظة ٣٣: ٣ من العظات الخمسين للقديس أنبا مقار).

الاعتفاء من سُكنى الرب أو مكوثه في حياتنا:

حينما اعترت الدهشة بطرس الرسول وباقي التلاميذ من كثرة الصيد الذي اجتنوه، حتى كادت السفينتان أن تغرقا من كثرة السمك، بعدما قضوا الليل كله دون صيد، وبعد أن طلب منهم الرب يسوع أن يدخلوا إلى العمق؛ فقد خرَّ بطرس الرسول عند ركبتيّ يسوع قائلًا له: «اخْرُجْ مِنْ سَفِينَتِي يَا رَبُّ، لأَنِّي رَجُلٌ خَاطِئٌ» (لو ٥: ٨). وهذا الطلب لم يكن – في الحقيقة – رفضًا لتواجد الرب ومكوثه معه في السفينة، بل كان رد فعلٍ لإحساسٍ إنسانيٍّ عميقٍ بعدم الاستحقاق، وصغر النفس أمام عظمة ما صنعه الرب، وتعبيرًا عن مدى الانبهار به مقابل الضعف الإنساني والقدرات المحدودة التي له ولباقي التلاميذ المتمرِّسين في حرفة الصيد. ولذلك نرى نفس الرسول يهتف – فيما بعد – وهو على الجبل المقدَّس، وقت تجلِّي الرب وظهور موسى وإيليا معه، وينطق بقوله: «يَا رَبُّ، جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هُهُنَا!» (مت ١٧: ٤)، مُظهِرًا رغبته القلبية في التواجد مع الرب على الدوام.

كذلك في حادثة شفاء عبد قائد المئة؛ فقد قال الرجل ليسوع أولًا: «يَا سَيِّدُ، لَا تَتْعَبْ. لأَنِّي لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي» (لو ٧: ٦)، فهو قد قال هذه العبارة من باب الاتضاع والاعتراف بقدرة الرب يسوع على شفاء غلامه بمجرد كلمة منه، مُظهِرًا قمة الإيمان به، حتى إن السيِّدَ قد أشاد بإيمانه، ووهبَ له ما أراده، وشهد لعِظم إيمانه: (انظر: لو ٧: ٩، ١٠).

ولكن علينا أن ننتبه إلى أن التواني والمماطلة والاستهتار بنداء الرب ودعوته لنا، وقرعِه على أبواب قلوبنا، فهذا جدير بأن يُفقدنا فرصة دخول الرب وسُكناه فينا، **والمكوث** والعشاء معنا، ويُضيِّع علينا نعمة العشرة والفرح بالرب، والشركة المقدَّسة مع العريس السمائي، كما حدث مع عروس النشيد: (انظر: نش ٥: ٥، ٦). لذلك يدعونا القديس مقاريوس إلى غَصب أنفسنا والتواضع والتضرُّع حتى ننال حظوة حلول الرب فينا، والامتلاء من روحه القدوس ليعلِّمنا كيف نعبد الله كما ينبغي؛ فيقول: [لذلك فلنغْصِبنَّ نحن أيضًا ذواتنا ونقتسِرها إلى التواضع – ولو لم يُرِد قلبنا – وإلى الوداعة والمحبة، متوسِّلين وضارعين إلى الله في إيمانٍ ورجاءٍ ومحبة بلا انقطاع، في انتظارٍ هذا مقداره وترقُّبٍ، لكي يرسل روحه إلى قلوبنا حتى نصلِّيَ ونسجدَ لله «بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ»] (العظة: ١٩: ٨ من العظات الخمسين للقديس أنبا مقار).

أين هو مكان سُكنى الربِّ وموضع راحته:

تساءلَ سليمان قديمًا عن موضع سُكنى الربِّ، فقال: «لأَنَّهُ هَلْ يَسْكُنُ اللهُ حَقًّا مَعَ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ؟» (٢أخ ٦: ٨)، ثم تضرَّع إلى الله راجيًا حلوله وسُكناه في البيت الذي صنعه له بقوله: «وَالآنَ قُمْ أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلهُ إِلَى رَاحَتِكِ أَنْتَ وَتَابُوتُ عِزِّكَ» (٢أخ ٦: ٤١)، وكان كلُّ غاية سليمان أن يحُلَّ الله ويمكث في الهيكل الذي بناه له. ولكن القدير لا يسكن في مصنوعات الأيادي، لكنه من قِبَل محبته للبشر، تجسَّدَ وأتى إلينا، وصنع لنا خلاصًا أبديًّا بدم ابنه، وأعطانا روحه القدوس عطيَّة أبديَّة **ليمكث** معنا كلَّ حين، وذلك إن أعددنا أنفسنا لنكون هيكلًا مقدسًا له، كما يكتب القديس بولس الرسول بالروح: «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟» (١كو ٣: ١٦)، وأيضًا قوله: «**وَبَيْتُهُ نَحْنُ** إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عب ٣: ٦). وهو بهذا يجيب على التساؤل: «أَيٌّ هُوَ مَكَانَ رَاحَتِ؟» (أع ٧: ٤٩)، إذ يؤكِّد لنا الرسول بولس هذا المعنى عن حلول المسيح في قلوبنا كمسكَنٍ له، حينما يكتب بالروح: «لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ» (أف ٣: ١٧)، وذلك إتمامًا لوعد المسيح نفسه عن إرسال روحه القدوس **ليمكث** معنا إلى الأبد بقوله: «وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ ... لأَنَّهُ **مَاكِثٌ** مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ» (يو ١٤: ١٦، ١٧). ونحن نعلم أن حلول المسيح فينا يعني حلول روحه القدوس أيضًا؛ وذلك بحسب قول الرسول بولس: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذلِكَ لَيْسَ لَهُ» (رو ٨: ٩). والخلاصة أن قلب الإنسان قد صار هو الهيكل الجديد المُعَدُّ لحلول روحُ المسيح وسُكنى الله مع الإنسان، وصار هو مكان اللقاء وموضع الراحة للإله العظيم وبيت الفرح للإنسان الجديد، وبَقِيَ علينا أن نُعِدَّه حسنًا **ليمكث** معنا، فننهل من حُبِّه ترياقًا لآلامنا وجراحاتنا وشبعًا لنفوسنا وفرحًا لقلوبنا وعربونًا لرجاء الحياة الأبدية فينا.

كيف نتأهَّل لاستحقاق دعوة المسيح ومكوثه في قلوبنا؟

١- بالإيمان والرجاء: فالرسول بولس يكتب لنا بالروح: «لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ» (أف ٣: ٧). فبدون إيمانٍ لا يمكن إرضاؤه، ولا يقدر الرب أن يدخل إلينا ويصنع شيئًا إن لم يكن لنا الإيمان الكامل به، وقد قيل عن الرب إنه لم يقدر أن يدخل مدينة الناصرة، أو يصنع فيها آيات بسبب عدم إيمان أهل تلك المدينة: (انظر: مت ١٣: ٥٨، مت ٨: ٣٤). فالرب يترجَّى فينا صلابة الإيمان والثقة الكاملة به، حتى يمكنه الدخول إلينا وتلبية دعوتنا للعشاء **والمكوث معه.**

كما أن الرجاء الحي الثابت بالمسيح كفيل بإعدادنا بيتًا مستعدًّا لقبول الرب، ومنزلًا مريحًا **ليمكث** فيه. ويؤكِّد لنا بولس الرسول هذا المعنى إذ يقول: «وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عب ٣: ٦).

٢- بالصلاة الدائمة والاتضاع والاشتياق لحضوره: كان الرسل الأطهار وباقي التلاميذ مجتمعين للصلاة بحرارة واشتياق حينما حلَّ الروح القدس عليهم. ونحن أيضًا نصلّي دائمًا للروح القدس طالبين حلوله فينا بقولنا: "هلمَّ تفضَّل وحلَّ فينا" (صلوات الساعة الثالثة في الأجبية المقدسة)، وها قد سَكبَ المسيح علينا روحه القدوس من عند الآب، وملأنا من غِناه، وأعطانا جسده ودمه لنَتَّحِد به، فصار موجودًا في سفينة قلوبنا، لكنه نائمٌ في السفينة، والروح خافتٌ في القلب ينتظر من يوقظه ويشعل ناره الإلهية فيقوم ليُهدِّئ العواصف **ويمكث** معنا مُعطيًا سلامه وفرَحَه وخلاصَه الذي يفوق كلَّ عقل. فالربُّ قريب لمن يدعوه، لكنه ينتظر دعوتنا الصادقة له للمشاركة معنا.

كما يلزم أيضًا لضمان حضور الرب معنا وراحته داخلنا أن يكون لنا ذلك الاشتياق الذي كان لزكَّا العشار، والاستعداد لتقديم توبة قلبية صادقة ورغبة حقيقية في إصلاح أنفسنا، لأن توبتنا واتضاعنا يفرِّحان قلبَ المسيح، ويُلزماه بالدخول إلى بيوت قلوبنا. كذلك يَلزم أن نَلتحِف بثوبِ الاتضاع كما صنع قائد المئة، الذي لم يَحسِب نفسه أهلًا لدخول المسيح إلى بيته، إحساسًا منه بضعفه وعدم استحقاقه، وثقةً وإيمانًا بقدرة سيده، لذلك تمَّمَ له الرب كل ما أراده.

٣- المداومة على شركة الإفخارستيا وتناول جسد المسيح ودمه الأقدسين: إن مداومة الشركة في تناول جسد المسيح ودمه المقدَّسَين هي الهبة والعطية العُظمى والوسيلة السرية الإلهية للاتحاد بالمسيح اتحادًا مقدَّسًا، وتحقيق معيَّة الشركة الكاملة مع الرب. لأننا بالإيمان نصير واحدًا معه، وهذا هو غاية عمل المسيح الخلاصي من أجلنا، فهو بهذا السرّ الجليل قد وهبنا – لا أن نلمسه وننظره بالعيان فقط – بل أن نَتَّحِد به ونحتضنه ونخبِّئه في قلوبنا بسرٍّ لا يُنطَق به. فلنتقدم بجسارة الإيمان لنلتقي الرب ونأخذه عريسًا لنفوسنا، **فيمكث ويبيت ويرتاح** داخلنا، فنخلُص نحن برحمته.

«آمِينَ. تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ» (رؤ ٢٢: ٢٠).